الأطر النظرية في دراسة الثقافة

تعددت الأطر النظرية التي تناولت الثقافة الإنسانية. فقد اتجهت عديد من الاتجاهات الفكرية تناولت الثقافة من منطلقات وأبعاد مختلفة. وقد اهتم علماء الأنثروبولوجيا الثقافية تحديداً في إيجاد تفسيرات خاصة بالوقائع الاجتماعية والأحداث الحياتية المجتمعية من منطلق تفسير الثقافة. فقد بحثوا في مفهوم الثقافة وتطورها، وعناصرها، وما هي الوظائف التي تؤديها هذه العناصر، وكيف تربط هذه العناصر مع بعضها بعض، وكيف خدمت الفرد، وكيف خدمت المجتمع، وما هي علاقتها– أي الثقافة– بالفرد وشخصيته وكيف تؤثر على سلوكه. فقد انطلقت هذه الاتجاهات الفكرية للإجابة على هذه الأسئلة التي تتعلق بالثقافة الإنسانية.

وتحاول النظريات التي تفسر الثقافة بالوقوف على العديد من المفاهيم والمصطلحات. فقد حاول الأنثروبولوجيون الوقوف على مفهوم الثقافة نفسه، وما يسمي بالثقافات الفرعية، ومفهوم المجتمع، والحالة الاجتماعية، والأدوار الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، والبناء الاجتماعي، والتبادل الثقافي، والقوانين الثقافية، والاندماج الثقافي، وعلاقة الثقافة بالفرد والبناء الاجتماعية والوظيفة. فقد حاولت النظريات الثقافية تفسير هذه المفاهيم ووضع الأطر الفكرية الخاصة بها وتحاول النظريات الأنثروبولوجية التي تفسر الثقافة التركيز والاهتمام بالإجابة على ثلاثة أسئلة رئيسة :

1- ما هي العمليات التي تجعل من المجتمعات الصغيرة والبسيطة تتجه نحو التعقيد؟

2- إلي أي مدى تتشابه كافه المجتمعات الإنسانية، وإلي أي مدى تختلف؟

3- كيف نستطيع أن ندرك ونفهم طبيعة المجتمعات المعقدة وآلية عمل هذه المجتمعات بالمقارنة في آليات عمل المجتمعات البسيطة؟

فهناك أسئلة محددا تحاول الاتجاهات النظرية أن تجد إجابة عليها. فهي عبارة عن أسئلة تتعلق بشكل مباشر بكيفية تطور المجتمعات الإنسانية واتجاهها نحو التعقيد بعد ما كانت بسيطة، وكيف يمكن أن تتشابه كافة المجتمعات الإنسانية بخصائص ثقافية عامة، في مقابل اختلاف هذه المجتمعات جميعها أيضاً بخصائص محددة ومميزة، وأخيراً كيف تعمل المجتمعات المعقدة

ومستوى العلاقات والتفاعل السائد فيها، في مقابل عمل وتفاعل المجتمعات البسيطة. فتحاول النظريات الثقافية إيجاد إجابة خاصة عن هذه الأسئلة المحددة.

ولقد ظهرت منذ ظهور الأنثروبولوجيا علي يد مؤسسيها مثل ادوارد تايلور، ولويس هنري مورجان منطلقات نظرية متعددة تحاول الإجابة على هذه الأسئلة من منطلقات فكرية مختلفة، ومن اتجاهات شكلت أساساً نظرياً لدراسة الثقافة الإنسانية. ونحاول من خلال السطور القادمة عرض لأبرز هذه الاتجاهات كما جاءت في الأدبيات التي لخصت هذه النظريات والتي سيتم عرضها بشكل مختصر، والمتمثلة في نظرية التطور الثقافي أو التطورية، والمدرسة التاريخية، والمدرسة الانتشارية، والمدرسة الوظيفية، والمدرسة الثقافية النفسية، والمدرسة البنائية، والمدرسة التطورية المحدثة، بالإضافة إلى اتجاهات نظرية خاصة بالمدرسة الرمزية، والاتجاه الذاتي لفهم الثقافة، والاتجاه الثقافي الايكولوجي، والاتجاه السياسي الاقتصادي. ويمكن عرض هذه المدارس والتوجهات النظرية كلا منها على حدة.

المدرسة التطورية:

وتسمي مدرسة التطور الثقافي أيضاً. ويرجع أصل نشأتها مع نشأة الأنثروبولوجيا مع نهاية القرن التاسع عشر. هذه الفترة والتي نشأت فيها هذه النظرية ارتبطت بانتشار واتساع المستعمرات الأوربية. ولقد ساد في تلك الفترة التأثير الكبير بأفكار دارون ونظرية التطور، وما يسمى بالبقاء للأصلح أو للأقوى Survival of the Fittest.

ولعل من أبرز علماء ورواد تلك الفترة هما ادوارد تايلور، ولويس هنري مورجان اللذان يعتبران من مؤسسي الأنثروبولوجيا من خلال دراساتهم النظرية والتي احتوت علي أفكار واتجاهات خاصة شكلت الأساس لظهور الأنثروبولوجيا كعلم مستقل. وعلي الرغم من أن تايلور ومورجان لم يخوضا الحقل والميدان في دراساتهما، (عدا بعض الملاحظات التي قدمها مورجان) إلا إنهما اعتبارا من مؤسسي الأنثروبولوجيا ومن أوائل من درس الثقافة الإنسانية من منظور علمي تأسست قواعده وظهرت الأنثروبولوجيا إلي حيز الوجود. لقد تبني ادوار وتايلور ولويس وهذي مورجان التفسير التطوري للثقافي. أي أن الثقافة تتطور من البسيط إلي المعقد. فقد تبني تايلور هذا المنطلق النظري واعتمد عليه. فقد شهد التطور كافة المجتمعات الإنسانية، ويرى أن التفاوت

والاختلاف في المجتمعات المعاصرة ما هي إلا نتاج مرحلة من مراحل التطور. فيرى أن بعض الثقافات المعاصرة التي تتميز ببساطتها تتشابه مع الثقافة البسيطة في المجتمعات البدائية التي مر بها الإنسان، والمجتمع المتقدم ما هو إلا مرحلة تطورية متقدمة من مراحل تطور المجتمعات، ومر بمرحلة تطور إلي أن وصل إلي الحالة التي هو عليها الآن. وأن أكثر المجتمعات تقدماً قد شهدت تطوراً ثقافياً وصلت من خلاله إلي هذه المرحلة.

ويرى تايلور أن التطور للمجتمعات الإنسانية يمر بخط متوازي أحادي، بمعني أن كل المجتمعات متشابه في مرحلة التطور وذلك لان الأفراد متشابهين بالصفات الأساسية وأن جميع الأفراد لهم خصائص نفسية متشابه. فجميع الأفراد لديهم العقلية المتشابه، والقدرة نفسها في التفكير المنطقي. فعند مواجه الفرد لأي مشكلة، فإنه يقوم بحلها بطريقة متشابهة مع الآخرين، ويخترع الوسائل نفسها لحل هذه المشكلة. ولذلك أصبحت هناك اختراعات شخصية في كل ثقافة علي حدة، وهي اختراعات متشابهة بين الثقافات المعزولة لأن الأفراد فيها يستخدمون القدرات العقلية نفسها في حل المشكلات ويتشابهون في هذه القدرات.

ولا يقل إسهام لويس مورجان عن إسهام ادوارد تايلور في تأسيس ونشأة الأنثروبولوجيا بكونها علم مستقل بحد ذاته، وذلك من خلال تركيزه أيضاً علي الاتجاه التطوري وتبني أفكاره. ففي كتابه " المجتمع القديم" حاول مورجان أن يلخص أفكاره الخاص بتطور الثقافات الإنسانية. وقد قام بتفسير العديد من الظواهر الثقافية من منطلق تطوري كحال تايلور. فقد أشار مورجان علي سبيل المثال إلي أن الأسرة قد مرت بمراحل تطورية ستة:-

1- فالمجتمعات الإنسانية قد بدأت من مجموعة من الجماعات المختلطة أو المشاعية. فهناك اختلاط واتصال جنسي مشاعي دون تميز ودون نظام محرمات، ودون وجود نظام خاص للأسرة. فنظام الأسرة غير موجود في هذه المرحلة.

2- المرحلة الثانية: وهي الذي كان الاتصال الجنسي قائم علي أساس مجموعة من الأخوة يتزوجون مجموعة من الأخوات، وقد كان زواج الأخ من الأخت مسموحاً.

3- المرحلة الثالثة: في هذه المرحلة منع المجتمع كمرحلة تطورية زواج الأخ من أخته، ولكن الزيجات الجماعية كانت تمارس في هذه الفترة من عمر المجتمعات.

4- المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التي تطورت معها الحياة الإنسانية إلي المرحلة الأخرى في حيا ة الإنسان وهي المرحلة البربرية (حسب تقسيم مورجان) والتي تحرر فيها الزوجان بشكل عام (الذكر والأنثى) من المعيشة مع الآخرين.

5- المرحلة الخامسة: وهي المرحلة التي أصبح فيها الرجل مسيطراً، وأصبحت العائلة تحت سيطرته، والتي من خلالها يستطيع الرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة في الوقت نفسه.

6- المرحلة السادسة: وهي مرحلة الحضارة والتي تميزت بالأسرة أحادية الزوج والزوجة واللذان يعتبران متساويان في الحالة.

ولعل تفسير مرجان هنا في هذا المجال يعكس الواقع التطوري للأسرة من المنظور الغربي، والذي يحدد ممن خلال أحادية الزواج. فالزواج المتعدد هي مرحلة سابقة من مراحل التطور. كما يرى ويفسر تطور العائلة من المنظور التطوري الخاص. ويرى مورجان من جهة أخرى إلى أن الوحدات الأسرية أصبحت تتجه لصغر حجمها ومكتفية ذاتياً كلما تطور المجتمع. ولقد تعرضت محاولات مورجان في هذا التفسير لكثير من الاعتراضات والنقد، بحكم أنه لم يعتمد على هذا التفسير من واقع دراسات حقلية ميدانية اثنوجرافيه.

فعلى سبيل المثال لا يوجد أي مجتمع وحشي أو بدائي في الوقت الراهن كما يطلق علية مورجان يسمح بزواج الأخ من أخته. فقد افتقد مورجان إلي الدليل الاثنوجرافي في عرضة لنظريته في هذا الجانب. ولعل إسهام مورجان في هذا الجانب والمتمثل في فكرة تطور العائلة أو الأسرة قد استمده من نظريته العامة عن التطور. فقد اعتمد مورجان في تقسيمه للمجتمعات الإنسانية إلي ثلاث مراحل تطورية تتمثل في المرحلة الوحشية، ثم تأتي بعدها المرحلة البربرية، ومن ثم مرحلة الحضارة. ويشير مورجان إلي أن كل مرحلة من هذه المراحل أثمرت عن وجود مجموعة من العناصر الثقافية والتي تتطور لتنتقل إلي مرحلة أخرى. ولعل النظم والأنساق الاجتماعية جميعها قد مرت بمراحل تطورية في حياة المجتمعات الإنسانية كما أشار إليها مورجان.

ولقد تعرضت النظرية التطورية إلي نقد شديد بحكم عدم اعتمادها علي الحقل والميدان. وقد ظهرت العديد من الاتجاهات النظرية الأخرى التي حاولت أن تفسر الواقع الاجتماعي من خلال الاعتماد علي الدراسات الميدانية. وهذا لا ينكر من أن انطلاقة الفكر الأنثروبولوجي قد جاء من

المدرسة التطورية ومن أفكار واتجاهات تايلور ومورجان إلا إنها تعرضت للنقد الخاص بمخالفة الواقع الميداني للواقع النظري عند تبينهم للمفهوم التطوري للثقافة وللمجتمعات الإنسانية.

المدرسة التاريخية:

انطلقت المدرسة التاريخية علي يد من يلقب بعميد الانثروبولوجين الأمريكيين فرانز بواز. لقد عرض بواز الفكر التطوري بشكل قاطع انطلاقاً من أن القوانين العلمية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنطبق علي كافة الثقافات والمجتمعات بشكل واحد. فهناك اختلافات بين المجتمعات بعضها عن بعض. لقد اعتمد بواز في تحليله للثقافة علي الدراسات الميدانية عند دراسته عن هنود الكواكيتل Kwakiutl Indians في ساحل شمال غرب المحيط الهادي، والذي من خلال العمل الميداني تعلم بواز لغتهم. ولقد توصل بواز إلي أن هناك فروق بين المجتمع الغربي الذي ينتمي إليه، وبين ثقافة المجتمع المدروس من حيث نظرتهم للعالم الخارجي. وقد أشار بواز إلي أن أي ظاهرتين متشابهتين موجودتين في مجتمعين مختلفين من الممكن أن يتم تفسيرهما بطريقة مختلفة عن الأخرى، وليست كما يشير أصحاب الفكر التطوري بأنها حالة ملزمة تمر بها كل المجتمعات. فمن المهم حسب رأيه أن ننظر إلي هذه الظواهر كل على حدة وفي إطار مفصول عن أي مجتمع آخر، ومن المهم جداً أن ننظر إلي تاريخ هذه الظاهرة في كل مجتمع على حدة حتى نقدم التفسيرات الخاصة. فالتاريخ هو الأساس في فهم التغير، وهو الذي يقدم لنا التفسيرات.

ولقد أشار أيضاً بواز إلي مفهوم اللغة التي تبناه أصحاب الاتجاه التطوري والذين حددوا بأنها تتطور من بسيط إلي معقد أيضاً، حيث أشار إلي أن هذه الفكرة هي فكرة غير مقبولة. فلا يمكن لأي لغة في كل المجتمعات أن تتطور من بسيط إلي معقد وتمر بالمراحل نفسها، إنما اللغة ببساطه تختلف من مجتمع لآخر والتي يحمل كل مجتمع مفرداتة الخاصة التي تشتق من ثقافته. فكل ثقافة تتميز بخصائص محددة لا يمكن فهمها إلا من خلال فهم تاريخها علي حدة بمعزل عن الثقافات أو المجتمعات الأخرى. ولابد من الإشارة إلي أن بواز لم ينكر إلي أن المجتمعات تتطور، ولكن هو يشير إلي أنه لا بد من التركيز علي دراسة التاريخ لهذا التطور لكل مجتمع علي حدة.

ويشير بواز إلي أنه من الضروري أيضاً الاعتماد على المعلومات الاثنوجرافية لكل مجتمع من المجتمعات المبحوثة والتي يمكن الحصول عليها عن طريق الدراسات الميدانية والحقلية. فلا يمكن أن نفهم المجتمع وتطوره والواقع الاجتماعي له إلا من خلال الدراسات الميدانية الحقلية، والتي من خلالها نستطيع أن نجمع المعلومات عن المجتمع المراد دراسته. فالدراسات الحقلية الميدانية بالإضافة إلي التاريخ هي الأساس في فهم المجتمع.

المدرسة الانتشارية:

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبينما كانت النظرية التطورية لتايلور ومورجان سائدة، ظهر اتجاهاً نظرياً اهتم بانتشار العناصر الثقافية وسُمي بالمدرسة الانتشارية. وقد حملت هذه المدرسة اتجاهين فكريين لمدرستين أحدهما سميت بالمدرسة البريطانية، والأخرى المدرسة الألمانية النمساوية. فكلا هذين الاتجاهين النظريين حاولا تفسير الوقائع الاجتماعية والثقافة من منطلق ما يسمي بانتشار العناصر الثقافية بدلاً من تطورها كما جاء في الاتجاه التطوري. فيرى أصحاب هذه المدرسة أن العناصر تنتشر من مكان لآخر أو من بقعة جغرافية إلي أخري.

ولعل من أبرز رواد المدرسة الإنجليزية الانتشارية هو إليوت سمث Elliot Smith، ووليم بيري William Perry .. فيرى سمث وبيري بأن جميع الحضارات كان منشأها مصر وتطورت منها، وذلك بحكم أن مصر قد كانت متطورة في الزراعة. ولقد انتشرت العناصر الثقافية إلي بقية المجتمعات وذلك بفضل احتكاك وتواصل الآخرين مع الثقافة المصرية. فهم يرون أن التطور المستقل المتوازي للعناصر الثقافية في منطقتين جغرافيتين متباعدتين هو أمر نادر الحدوث. فالإنسان يفضل دائماً أن يستلف الاختراعات، والأدوات من ثقافات أخرى بدلاً من أن يقوم بتطويرها بنفسه. ولذلك فهي تنتشر من مكان إلى آخر بدلا من أن تتطور.

أما الاتجاه الآخر للمدرسة الانتشارية والمتمثلة في المدرسة الألمانية والنمساوية والتي يعتبر من أبرز أعلامها وروادها فريدرك راتزل Fredrick Ratzel، فريتز كرايبنر Fritz Graebner. ولقد أشار أصحاب هذه المدرسة أيضاً إلي قضية الاستعارة للعناصر الثقافية وذلك بحكم أن الإنسان غير مبدع أو غير مخترع. لقد أشار أصحاب هذه المدرسة أن العناصر الثقافية من

الممكن أن تنتشر بواسطة مجموعات سكانية، كما هو الحال بواسطة الأفراد أنفسهم عبر مسافات متباعدة. وعلى خلاف من المدرسة البريطانية، فهم يرون أن العناصر الثقافية ليس مصدرها أو أصلها في مصر، أنما أصلها يرجع إلى ثقافات متعددة وليست ثقافة واحدة.

ولقد ظهر اتجاه انتشاري أمريكي آخر على يد تلاميذ بواز صاحب النظرية التاريخية، وهما كلارك ويسلر Clark Wissler و ألفرد كروبر Alfred Kroeber، والذين طوروا منظوراً نظرياً خاصاً بالمدرسة الانتشارية اعتمد علي المناطق الجغرافية وانتشار العناصر الثقافية بها من خلال منطقة المركز الثقافية Culture Center والذي أدى إلي تطوير مفهوم ما يسمي بمناطق العمر Age –Area. وقد أعتمد هذا الاتجاه أن هناك منطقة ثقافية مركزية ومحددة، وبدأت من خلال هذا المركز انتشار عناصر ثقافية عن الأماكن الجغرافية المحيطة، وتتباعد عن محيط المركز. وكلما بعدت عن المحيط، كلما دل ذلك علي قدمها – أي قدم العنصر الثقافي. فهناك عملية انتشار تحدث للعناصر الثقافية، وهي تبتعد عن مركز وجودها.

المدرسة الوظيفية:

مثلها مثل بقية المدارس، فقد انتقد أصحاب المدرسة الوظيفية التفسير التطوري للمجتمع. وأشار أصحاب هذه المدرسة إلي انه لا يمكن أن نفهم الواقع الاجتماعي للمجتمع من خلال التطور. ولعل من أبرز رواد هذا الاتجاه هو مالينوفسكي Malinowski الذي ارتبط تفسيره للمجتمع من واقع الدراسات الميدانية للسكان الأصلية لجزر التروبرياند. لقد حاول مالينوفسكي أن يتشرب لغة وثقافة المجتمع المدروس حتي ينظر معهم إلي العالم نظرة مشابهة، وليفهم ثقافتهم بشكل أكبر. فهو يعتبر من رواد العمل الحقلي في مجال الثقافة والأنثروبولوجيا. ولقد استخدم مشاعره وأحاسيسه واندمج مع المجتمع المدروس من خلال الاتجاه المنهجي المعروف في الانثروبولوجيا "بالملاحظة بالمشاركة"، والذي كون قواعد عامة فيه. ويرى مالينوفسكي بشكل عام أن العناصر الثقافية الموجودة في المجتمع ما هي إلا لخدمة وسد احتياجات الأفراد داخل هذا المجتمع. فالوظائف الخاصة بالعناصر الثقافية ما هي إلا لسد وإشباع الحاجات الأساسية والثانوية أو المستمدة من أعضاء المجتمع. ومن أبرز الحاجات الرئيسة التي أشار إليها هي الحاجة إلي الغذاء، والأمن، والراحة، والنمو، التكاثر والتناسل وغيرها. ولذلك فإن بعض عناصر الثقافة تسعي لتحقيق وسد هذه الاحتياجات الأولية. وتظهر أيضاً الحاجات المستمدة من الأفراد داخل

المجتمع الذين يسعون إلي سد هذه الحاجات الأساسية فالحاجات إلي الغذاء أمر أساسي ورئيسي، وتسعى بعض العناصر الثقافية لتوفيره، من خلال الاعتماد علي عملية الإنتاج التعاوني أو لجمع للغذاء. فهي حاجات مستمدة من الأفراد داخل المجتمع. ولذلك تظهر المؤسسات الاجتماعية التي تؤدي دوراً ووظيفة لسد احتياجات الفرد.

ومن أبرز رواد المدرسة الوظيفية أيضاً راد كليف براون، والذي بدوره اعتمد علي اتجاه ما يسمي بالمدرسة الوظيفية البنائية والذي اختلف عن مالينوفسكي في انه يرى أن العناصر الثقافية تهدف بالنهاية إلي خدمه المجتمع وسد احتياجاته، وليس تحقيق احتياجات الأفراد. فالسلوك الاجتماعي وأشكاله المتعددة هو للمحافظة علي البناء الاجتماعي العام بدلاً من سد حاجات الأفراد. ويرى أن البناء الاجتماعي للمجتمع هو إجمالي شبكة العلاقات الاجتماعية الموجودة. فهو يتحدث عن علاقات بنائية داخلية تؤدي بشكل متجانس ومتناغم وظائف لتخدم المجتمع في النهاية. ولعل المدرسة الوظيفية في النهاية تركز علي نقطه أساسية وهي أن كل عنصر ثقافي في المجتمع يؤدي وظيفة، وأن هذا العنصر الثقافي يستمر في الوجود ما دام يؤدي وظيفة، ومن الممكن أن يتلافى ويختفي عندما لا تكون له وظيفة يؤديها سواء للمجتمع أو للفرد.

وقد ركز أصحاب هذا الاتجاه وبالتحديد الوظيفة البنائية علي عملية المماثلة العضوية بين الكائن الحي والمجتمع، بحيث أن كل عضو من أعضاء الجسم الإنساني يؤدي وظيفة للجسم بشكل عام، وأي خلل في أي من الوظائف في الأعضاء يؤدي إلي خلل في الجسم بشكل كامل. وهو الأمر المشابه للمجتمع، فإنه يتكون من أجزاء وعناصر ثقافية، تؤدي وظائف للمجتمع بشكل عام، وأي خلل في هذه العناصر يؤدي إلي حدوث خلل في المجتمع. فهي فكرة مستمده من فكرة المماثلة العضوية لهربرت سبنسر. ولعل هناك رواد آخرون لهذا الاتجاه الوظيفي مثل أميل دوركهايم الذي اعتمد على التحليل النظري، وكذلك إيفانز بريتشارد والذي كان له إسهامات مميزة في مجال الدراسات الحقلية والميداني التي تتبنى الاتجاه الوظيفي.

مدرسة الثقافة والشخصية:

وتسمي أيضاً بالمدرسة الأنثروبولوجيا النفسية. وهذه المدرسة تهتم بدراسة العلاقة بين الثقافة وشخصية الفرد. ولعل من أبرز رواد هذه المدرسة روث بيندكيت Ruth Benedict ومارجريت

ميد Margaret Mead. لقد أشارت روث بيندكيت إلي أن تعدد الثقافات واختلافها من الممكن أن ترجع إلي اختلاف الشخصيات وطبائعها في هذه المجتمعات. فالثقافة من الممكن أن يتم تشكيلها وفقاً للشخصية السائدة داخل المجتمع. أما ميد فقد رأت مثلها مثل بيدندكت بأن هناك رابط بين الثقافة وشخصية الفرد، ولكنها أخذت اتجاهاً مختلفاً في عملية الربط. لقد قامت ميد بدراسة ثلاثة مجتمعات ثقافية مختلفة في غينيا الجديدة، وقد أشارت ميد إلي أن كل ثقافة من هذه الثقافات الثلاثة تتميز باختلافات سلوكي وفي الشخصية بين الذكور والإناث.

بمعني أن الذكور والإناث في كل ثقافة علي حدة يتميزون بطبائع شخصية مختلفة ومميزة ويشكلون نموذجاً خاصاً داخل المجتمع نفسه، بالإضافة إلي أن الذكور في الثقافة الأولي يختلفون عن الذكور في الثقافة الثانية والثالثة، وكذلك الحال بالنسبة للإناث في شخصياتهم. وقد استخلصت ميد إلي أن الثقافة وليست الوراثة هي الأساس في تشكيل الاختلافات في الشخصية بين شخصيات الذكور والإناث في المجتمع.

وفي الاتجاه نفسه قام الأنثروبولوجي رالف لينتون Ralph Linton وعالم النفس إبرام كاردنر Abram Kardiner بتطوير اتجاه ثقافي نفسي في فهم الشخصية وعلاقتها بالثقافة. فقد استحدثوا مفهوم يسمي بالبناء الأساسي للشخصية Basic Personality Structure. فيرون من خلال هذا الاتجاه إلي أن الإنسان تتكون شخصية في بداية مراحله العمرية من خلال الخبرات التي يكتسبها في المرحلة العمرية المبكرة. فالإنسان في المجتمع يمر بعمليات تربوية متشابهة خلال حياته مع الأخريين الذين يعيشون معه. وهذا التشابه في العمليات يخلق التشابه في الشخصية الثقافية. وتستمد العمليات التربوية أساساً من المؤسسات الاجتماعية الرئيسية والثانوية داخل المجتمع.

المدرسة البنائية:

وترتبط هذه المدرسة بشكل كبير بأعمال الفرنسي ليفي ستيراوس Claude Levi-Staruss، والذي أعتمد علي التحليل اللغوي للمعلومات كنموذج للاعتماد علية في تحليله للثقافة. يرى ستيراوس إلى أن عناصر الثقافة لا بد أن يتم إدراكها من خلال علاقتها مع بعضها بعض والتي من خلالها تشكل البناء. فكما هو الحال بالنسبة للغة، فهي في النهاية ما هي إلا مفردات

وكلمات والتي لا يعتبر لها معني لها إلا في محيطها في البناء الأكبر والذي من خلال تنقل المعني. فمن خلال البناء، فإن المعني يمكن أن ينقل. فينظر الانثروبولوجيون إلي بناء الثقافة الأساسي، كما هو الحال للقواعد في اللغة. ولعل مهمة الأنثروبولوجين المهتمين في هذا الاتجاه هو دراسة التشابه في البني الأساسية للثقافات المختلفة. فهذه المدرسة تهتم وتركز علي النظام الإدراكي المعرفي، والبناء القبلي، والفنون، والأساطير، والطقوس، والمراسم من ضمن أمور أخرى. فهم ينظرون إلي كيفية تناسق وتداخل هذه المكونات والتي تشكل الثقافة في النهاية. فهذه الأنظمة والأنساق هي التي تشكل الثقافة وتكون بناءها وتجعلها تختلف عن الثقافات الأخرى. وبمعني آخر هي التي تعطي معني محدد للثقافة. وهنا يختلف ستيراوس عن براون من حيث أن الثاني ينظر إلي أن العناصر الثقافية تؤدي وظيفة في المجتمع، بينما يرى ستيراوس إلي أن العناصر الثقافية هي نفسها تشكل المجتمع، فهو ينظر إلي أصل الأنظمة الاجتماعية نفسها.

المدرسة التطورية المحدثة:

هناك من تبني أفكار المدرسة التطورية، ورأى بأن ما هو ملاحظ بأن ما ذكره تايلور ومورجان صحيح بالنسبة للمجتمعات الإنسانية. فهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام والتي تتمثل في أن المجتمعات تتطور من بسيط إلي معقد، ومن وضع إلي آخر. فلم ينكر أصحاب هذا الاتجاه التطور بشكل قاطع، أنما جاءوا بأفكار حديثة جعلت منها اتجاها نظرياً هاماً في دراسة الثقافة الإنسانية، وأطلق عليها اسم المدرسة التطورية المحدثة، أو الحديثة.

ولعل من أبرز أنصار هذه المدرسة هو ليزلي وايت Leslie White. فقد أتي وايت بأفكار جديدة خاصة بتطور المجتمعات والثقافة الإنسانية. ولعل إضافته المميزة التي أشار إليها هو تركيزه علي مفهوم ما أسماه ب" الطاقة ". فأشار إلي مفهوم الطاقة بكونه محرك التطور للمجتمعات، حيث يرى أن المجتمعات والثقافة تتطور من بسيط إلي معقد عندما يسيطر الإنسان علي الطاقة. فمع زيادة والتقدم التكنولوجي، فإنها تعطي الإنسان السيطرة علي الطاقة والمتمثلة في الإنسان، والحيوان، والطاقة الشمسية وغيرها، وهي التي تؤدي في النهاية إلي تطور المجتمع. فالتطور مرهون باستغلال الطاقة، والطاقة هي المسئولة عن التطور.

ومن رواد هذا الاتجاه أيضاً جوليان ستيوارد والذي اعتمد على فكر مختلف. فالتطور أو الفكر التطوري يقسم إلي ثلاث مدارس: مدرسة التطور ذات الخط الواحد، المدرسة متعددة الاتجاهات، والمدرسة العالمية. فنظرية أو مدرسة التطور ذات الخط الواحد والتي تبناها تايلور ومورجان تتمثل في أن كل الثقافات تمر بخط تطوري واحد بصورة بسيطة إلي معقدة وتتشابه المراحل التطورية. أما النظرية العالمية والتي تبناها وايت والتي أشار إلي أن الطاقة هي مصدر التطور، وذات طابع واسع لكافة الثقافات بدلاً من ثقافة محددة، أما المدرسة الأخرى والتي تبناها ستبوارد، فهي مدرسة التطور متعدد الاتجاهات بحيث أنه يمكن أن يحدث تطور غير متوازي بين الثقافات الإنسانية. وهذا يعني أن التطور عملية حتمية ولكنها ليست بالضرورة تسير بنقس الخط أو الاتجاه لكل المجتمعات. وقد قام تلاميذ وايت و ستيوارد بتبني اتجاه تطوري حديث آخر حاولا من خلاله تصنيف التطور إلي قسمين: تطور محدد أو خاص، وهو يرمز إلي تطور يحدث في سلسلة محددة من التغيرات والتكيف لمجتمع محدد في بيئة محددة، وتطور عام والذي يرمز إلي عمليات عامة تحدث في كافة المجتمعات الإنسانية. فهما قد جمعا بين الاتجاه المتعدد للتطور الذي تبناه ستيوارد، والاتجاه العالمي الذي تبناه وايت.

مشهد أنثروبولوجي (1)

دراسات انثروبولوجية حول الزواج لدى شعوب إفريقيا

تنتمي شعوب إفريقيا إلى جماعات عرقية وجنسية ولغوية ودينية عديدة، والواقع أن هذا التعدد ينشأ عنه تفاوت كبير في أنماط العلاقات الاجتماعية والأسرية وأنواعها في البيئة الإفريقية، وليس هدفنا في هذا المقال حصر جميع الأنماط الأسرية والعلاقات القرابية القائمة، وإنما إلقاء الضوء على بعض النماذج لصور الزواج وما تمثله من علاقات قرابية، مركزين على النماذج والأنماط الأبرز والأكثر انتشاراً في القارة الإفريقية، مع ذكر أهم أهداف الزواج «الإفريقي» ووظائفه وما ينتج عنه من روابط، فكثير مما يتعلق بالعلاقات الأسرية والزواج الإفريقي ينعكس تأثيره على النواحي الاقتصادية والسياسية داخل القبيلة، ويتعدى ذلك أحياناً إلى التأثير في العلاقات الخارجية للقبائل والعشائر والعائلات.

ويمثل موضوع القرابة وما يتصل به من زواج وتكوين أسرة مركزاً رئيساً في الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، وربما كان السبب الرئيس في اهتمام العلماء بدراسة القرابة هو دورها المهم في العلاقات القرابية وروابطها في حياتنا اليومية.

تعريف القرابة:

يستخدم العديد من علماء الأنثروبولوجيا مصطلح «قرابة» مرادفاً لمصطلح «روابط الدم»، ومن هنا يمكننا تعريف القرابة بصفة مبدئية بأنها تلك «العلاقات المباشرة التي تنشأ بين شخصين نتيجة لانحدار أحدهما من صلب الآخر, كما ينحدر الحفيد مثلاً من الجد عن طريق الأب، أو نتيجة لانحدارهما معاً من سلف واحد مشترك, كالعلاقة بين أبناء العمومة التي تُرد هي أيضاً إلى الجد عن طريق الأعمام».

الزواج والأسرة:

علاقة الرجل بالمرأة من خلال نظام الزواج هي حجر الأساس الذي يقوم عليه شكل النظام القرابي في المجتمع، فهي تؤدي إلى إيجاد روابط قرابية لم تكن موجودة من قبل كالأب والأم، ومن قرابة المصاهرة بين أقارب الاثنين، وهي تعمل بذلك على توسيع علاقات المشاركة بالتواصل بين أفراد المجتمع.

«ويعد الزواج الأساس الذي تقوم عليه الأسرة؛ حيث يعتبر نظاماً اجتماعياً تنطبق عليه أهم خصائص النظم الاجتماعية؛ فالزواج يقوم بأداء وظيفة هامة في الحياة الاجتماعية في كافة المجتمعات, وهو يعتبر نوعاً من السلوك المقنن، ويتمتع بقدرة كبيرة على الصمود في وجه التغييرات التي تحدث في المجتمع».

«فإذا كان الزواج رد فعل واستجابة لدوافع الجنس عند الإنسان؛ إلا أنه يتم أيضاً من خلال نسق ثقافي خاص بنظام الزواج؛ من حيث الاكتفاء بزوجة واحدة أو الاقتران بعدة زوجات مثلاً، ومن حيث الأفراد الذين يجوز الزواج من بينهم كالزواج داخل الجماعة القرابية, ويشمل ذلك أيضاً من يحرم الزواج منهم.

ومن حيث الإجراءات التي تتخذ في سبيل تحقيق الزواج، مثل: الخطبة والمهر وقيمته وعقد الزواج ومظاهر الاحتفال به، وما يترتب على الزواج من حقوق كالميراث».

أنواع الزواج في المجتمع الإفريقي :

للزواج في إفريقيا خمسة أنواع هي:

النوع الأول: الزواج الأحادي monogamy :

وهو اقتران رجل واحد بامرأة واحدة في الوقت نفسه، وهو النظام الشائع الآن في معظم المجتمعات الإفريقية المتحضرة المتغربة، ويمثل في نظر التطوريين آخر مرحلة من مراحل الزواج.

النوع الثاني: تعدد الزوجات لرجل واحد polygamy :

وهو من الأنماط الزوجية الأكثر تفضيلاً وانتشاراً في أجزاء كثيرة من إفريقيا، ويبدو أنه مرتبط ارتباطاً مباشراً بالظروف الاقتصادية أو مرحلة الاعتماد الأولى للمجتمع على الرجال والنساء.

وهذا النظام يوجد في المجتمعات التي تقوم فيها النساء بمعظم الأعمال، وتعد كل زوجة في هذه الحالة رافداً اقتصادياً للأسرة، كما يوجد في المجتمعات التي يتحمل فيها الرجال العبء الأكبر من العمل، ومن ثم تعد الفتاة في هذه الحالة عبئاً اقتصادياً بخلاف الحالة السابقة، والرجل الفقير في إمكانه الجمع بين عدة زوجات إذا لم يكن هناك مهر مغالى فيه لإتمام عملية الزواج.

النوع الثالث: تعدد الأزواج للمرأة الواحدة polyandry :

وهذا النوع النمط من الزواج أقل انتشاراً مقارنة بتعدد الزوجات للرجل الواحد، وله شكلان:

- إما زواج المرأة الواحدة من عدة رجال أشقاء.
- أو زواج المرأة الواحدة من عدة رجال ليسوا أشقاء.

وقد يرتبط هذا النوع من الزواج بظروف خاصة ولفترة محددة من الوقت، فقبائل «الواهو» في شرق إفريقيا يحدث بها هذا النوع من الزواج عندما يكون الرجل فقيراً إلى درجة أنه لا يستطيع الزواج، ومن ثم يقوم إخوته بمساعدته مالياً، ومن ثم يشاركونه حقوق الزوجية حتى مرحلة الحمل.

النوع الرابع: زواج الجماعة group marriage :

هو شكل غير منتشر في إفريقيا بكثرة، وفيه يحق الاتصال الجنسي بين عدة رجال ونساء محددين دون تحمل مسؤوليات اقتصادية.

النوع الخامس: الشيوعية الجنسية promiscuity :

وتكون النساء جميعهن في المجتمع حقاً مشاعاً لجميع الرجال والعكس صحيح؛ دون التقيد بنظام الزواج، فعند قبائل «الباري» في شرق إفريقيا لا ينظرون إلى الاتصال بفتاة متزوجة بوصفه عملاً شائناً، بل حمل الفتاة قبل زواجها لا ينقص من قيمتها.

أنماط الزواج بإفريقيا:

1- الزواج الداخلي Endogamy:

وهو ذلك النمط الذي يباح فيه للرجل أن يتزوج امرأة من عائلته أو من بيته؛ بشرط ألا تكون من أحد فروعه أو أصوله.

ويؤدي هذا الزواج وظيفة مهمة في النظام القرابي؛ حيث يُسهم في دعم الحياة الاجتماعية والمحافظة على البناء الاجتماعي، وهو ما يساعد على تقوية الوحدة القرابية وتدعيمها وتماسكها؛ لأنه يحفظ الثروة من أن تنتقل بالوراثة عن طريق النساء لجماعات غريبة عن القبيلة أو العائلة.

والزواج الداخلي يقوي الجوانب الاقتصادية، فمثلاً في مجتمع البقارة نجد أن المهر يدفعه أهل العريس في شكل أبقار ونقود؛ وبذلك تنتقل الأبقار بسهولة ويسر داخل المجموعة القرابية، وهذا أمر في غاية الأهمية للقبائل الرعوية، والتي لا يعنيها في الحياة إلا أن تحافظ على الحد الأدنى من حجم القطيع للحفاظ على قيمته الاقتصادية التي تؤثر في المكانة الاجتماعية والسياسية لأصحاب هذا القطيع.

2- الزواج الخارجي Exogamy:

وقد يُطلق في بعض الأحيان على الزواج الخارجي مصطلح «الزواج الاغترابي»، وهو يعتمد على نوع من تحريم خاص؛ حيث يكون محظوراً على الرجال الزواج من العائلة لسبب من الأسباب أو لبعض المعتقدات.

يرى بعض العلماء مثل «دور كايم» أن الزواج الخارجي ذو أصل طوطمي؛ حيث يفترض هؤلاء العلماء أن الانتماء إلى طوطم معيّن يخلق يوجد علاقات اجتماعية تشبه علاقات أخوة الدم؛ على أساس أن أعضاء الجماعة الطوطمية انحدروا جميعاً من هذا الطوطم؛ وعلى ذلك فإن الزواج الداخلي فيما بينهم يعد نوعاً من زنا المحارم.

والزواج الخارجي أو الاغترابي يؤدي وظيفة مهمة في المحافظة على البناء الاجتماعي؛ حيث إنه يهدف إلى توسيع نطاق دائرة القرابة إلى أبعد من حدود الجماعة القرابية المتعاونة.

وظائف الزواج الإفريقي:

تستند فكرة الوظيفة التي تطبّق على النظم الاجتماعية إلى التماثل (المماثلة) بين الحياة الاجتماعية والحياة البيولوجية؛ وبذلك تكون وظيفة كل نظام اجتماعي هي ذلك الدور الذي يؤدّيه هذا النظام في البناء الاجتماعي، والذي يتألف من أفراد مرتبطين بعضهم مع بعض في وحدة متماسكة من العلاقات الاجتماعية.

فكل عضو بجسم الإنسان له وظيفة محددة تنعكس على الجسم بأكمله، وكذلك النظم الاجتماعية المختلفة لها وظائف تؤديها داخل المجتمع.

يرى (رادكليف بروان) أن وظائف الزواج الإفريقي تدور بين ثلاث وظائف رئيسة:

أولاً: الزواج يمثل نقلاً للحقوق القانونية للمرأة من نسبها إلى زوجها، ولا تقتصر على ما يخص العمل والعلاقة الجنسية والإنجاب، ولكن تشمل أيضاً الحق في الحصول على تعويض عن الأضرار التي لحقت بها من الآخرين.

ثانياً: الزواج يؤدي إلى حد ما إلى تمزقات، وذلك حين تنتقل الزوجة من بيت أهلها وتنضم لعائلة زوجها، أو العكس في بعض الأحيان حيث ينضم الزوج لعائلة زوجته, وبذلك يحدث انقطاع في العلاقات بين الزوجة وأهلها في حالة انضمامها لأهل زوجها، ولا تقيم علاقات مع أهلها السابقين، أو العكس في حالة انضمام الزوج لأهل زوجته.

ثالثاً: الزواج تحالف واتفاق بين عائلتين أو مجموعات قرابية، فالزواج لا ينظر إليه في إفريقيا بوصفه مجرد علاقة بين شخصين، ولكنه صلات هيكلية جديدة بين المجموعات.

مشهد أنثروبولوجي (2)

الزواج في قبيلة «الدينكا»:

ونأخذ هنا مثالاً عملياً لقبيلة تمثل 11% من عدد سكان السودان و 50% من عدد سكان جنوب السودان، وهي قبيلة «الدينكا» التي تعد من أهم المجموعات القبلية في جنوب السودان، وتمتد جغرافياً وتتوزع في ولايات بحر الغزال وجونقلي وأعالي النيل وتمتد حتى جنوب كردفان. وتعد قبيلة «الدينكا» من القبائل الإفريقية الكبيرة بعد «الزولو» في جنوب إفريقيا و«الماساى» في كينيا.

وينتمي مجتمع «الدينكا» إلى نوع من المجتمعات التي لا يستطيع الرجل فيها أن يتزوج من امرأة تمد له بصلة قرابة، و«الدينكا» يعرفون أنواعاً متعددة من العلاقات القرابية التي تربط بينهم، فهناك العلاقات القرابية التي تربط بين أبناء العشيرة الواحدة، أو العلاقات القرابية التي تنشأ عن المشاركة في مهر العروس.

ونجد أن العلاقات القرابية القائمة على أساس المصاهرة قد ساعدت على اتساع دائرة العلاقات، كما ساعدت على زيادة كثافة التفاعل في المناشط الاجتماعية المتنوعة التي يشارك فيها الأقرباء, وقد أدت هذه العلاقة إلى مزيد من قدرة النسق القرابي، وأن يكون إطاراً للوحدة السياسية.

وعلى كل حال فإن العلاقات الاقتصادية والأيديولوجية والاجتماعية لها صفة القرابة، ويتصرف الناس تجاه أفراد مجتمعهم كما لو أنهم كانوا أقرباء حقّاً في أوسع التنظيمات العشائرية؛ حيث ينتمي المئات إلى الجد نفسه، وقد تبتعد صلات الرحم بعيداً.

الزواج:

إن الزواج هو الوضع الاجتماعي الضروري لكي يكون المرء رجلاً مكتمل الرجولة، ومستحقاً للحصول على حقوقه القانونية من استقلال عن الأسرة، فالزواج يجعل له ذمة منفصلة, لذا فهو البدء للاستقلال عن الأسرة والشروع في تأسيس سلالة جديدة.

صحيح أن علاقات الغزل والحب بين شباب «الدينكا» ليست مرتبطة دائماً وموجهة نحو الزواج، بل ينظر إليه كأمر معيب أن يتسرع الرجل في نيته للزواج كوسيلة لكسب ود فتاة؛ لأن هذا دلالة على استغلاله للزواج في جذب الفتاة الدينكاوية من خلال علاقات الغزل والحب التي لا بد أن تكون سابقة للزواج، ولكن مع ذلك يظل الزواج هو أمل كل دينكاوي.

هناك أسباب عديدة لكي يكون للزواج هذا الوضع المتميز في مجتمع الدينكا، أحد هذه الأسباب هو الرغبة في تأسيس علاقة (رجل – امرأة) معتمدة اجتماعياً.

وحينئذ يتوجب على الشاب، قبل أن يخطب فتاة، أن يحصل على موافقة رفاقه في فئة عمره؛ فهم الذين يرافقونه أثناء ذهابه إلى منزل والد الفتاة من أجل أن يخطبها، وأما المهر فيشتمل عادة على عدد من رؤوس الأبقار والماعز بالنسبة إلى العشائر التي تعتمد في حياتها على رعي الماشية، بينما العشائر التي تهتم بصناعة الحديد فيكون المهر عبارة عن عدة قطع حديدية يستخدمها أهل الفتاة في حياتهم العملية.

ويمكن الاتفاق على دفع المهر بالتقسيط، وليس من المفروض أن يتم تسديد المهر حتى يتم الزواج؛ بحيث يمكن للعريس أن يقدم باقي المهر بعد الانتهاء من الزواج، وقد يقدم العريس أحياناً عدداً من الأبقار والماعز، وحربة لصيد فرس النهر, وصفائح من السمن وكميات من الأسماك، ولا يكون تحمّل المهر من منزل ذويه فقط، بل يكون أيضاً من أقاربه، وقد يوزّع والد العروس المهر الذي يُقدم له إلى أفراد أسرته.

ويتبين من ذلك أن الأقارب عون للعريس على دفع مهر العروس؛ لأن عدم مقدرة العريس على دفع المهر قد يسيء إلى سمعة أفراد عشيرته؛ ومن هنا كان للأقارب دور مهم في مثل هذه الحالة، أما والدة العروس فتقدم لابنتها وعاءً كبيراً ومحركين للحساء وبعض الملاعق.

وتكون المرحلة الأخيرة هي «زفاف العروس إلى عريسها» والتي قد تتبع دفع المهر بفترة قصيرة، إلا أنه من المعتاد أن تمضي عدة أشهر وأحياناً عدة سنين قبل أن تقوم العشيرة بزفاف الفتاة، وخلال الزفاف يجري طقس غسل فم العروس حتى تتمكن من تناول الطعام في بيت أقرباء زوجها.

الطلاق:

قد تكون أسبابه متمثلة في العقم، وعدم الوفاء للزوج، أو عدم قدرة الزوجة على طهي الطعام جيداً، أما حالة الزنا فلا تعد سبباً من أسباب الطلاق؛ لأن الزاني يجب أن يدفع للزوج غرامة قد تتراوح بين 5 – 8 رؤوس من الأبقار إذا فعل الزنا مع الزوجة.

ويفسر «الدينكا» ذلك بأن الرجال عادة هم الذين يبادرون في هذه المسائل، بينما تكون النساء في الغالب ضحية لعدوانية الرجال الجنسية، ولكنهم يعترفون أيضاً بأن للنساء أساليبهن الخفية، وأحياناً المباشرة لاستدراج الرجال. بعض الرجال ينقمون بشدة على الوضع الذي يُحمّلهم وحدهم النتائج القانونية المترتبة على الزنا، بينما تترك الشريكة الراغبة – وأحياناً المتسببة في هذه المسألة – حرة لا يمسها سوء، بل وينتفع زوجها من الجرم الذي حدث.

على الرغم من أن الرجل يتحمل المسؤولية القانونية إلا أن قيم «الدينكا» تلقي بالمسؤولية الأخلاقية على المرأة، وتعدها الأكثر فساداً، ولا يعني تعويض زوجها، أو إرضاؤه من جانب الزاني، أن علاقتهما في إطار الأسرة ستكون علاقة ودودة، بل غالباً ما يدفعه غضبه إلى التخلص من الأبقار التي حصل عليها كتعويض عن الواقعة في زيجة جديدة، وهو في كل الأحوال يمتنع عن شرب ألبان مثل هذه الأبقار أو أكل لحومها، أو تناول أي طعام تم الحصول عليه من ثمن بيعها.

وتظل العشيرة الأبوية متابعة ومهتمة بشؤون الزوجة طول حياتها الزوجية، وهي تهرع للوقوف بجانبها كلما اقتضت الحاجة ذلك، وفي الحالات التي تخطئ فيها في حق زوجها تسعى عشيرة الزوجة الأبوية لإرضائه بدفعة من الأبقار تسمى «أويك»، فأما إذا كانت هي الشاكية فعادة ما تعد مسألة أسرية، ولكن في الحالات التي تتعرض فيها حقوق الزوجة لانتهاكات خطيرة فإن عشيرتها تتدخل, وقد ترفع الأمر إلى القضاء في بعض الحالات القصوى، ويمكن أن ينتهي النزاع بالطلاق، سواء جاءت المبادرة من الرجل أو من المرأة أو أقاربها. غير أن الطلاق عند «الدينكا» أمر بغيض ونادر الحدوث بصورة عامة، وهو يمثل – حتى في النواحي الاقتصادية – فعلاً لا يرغب أحد فيه لما تطرحه شروط إرجاع مهر الزواج من تحديات وتعقيدات، فعندما يكون الزوج هو المخطئ لا يكون من حقه طلب إرجاع المهر إلا بعد زواج المرأة من جديد، وبعد أن يكون زوجها الجديد قادراً على تعويض الزوج السابق، وهو أمر غاية في الصعوبة؛ لأن الأبقار تكون قد تكاثرت حتى ذلك الوقت.

أما في الحالات التي يكون فيها الخطأ من جانب الزوجة أو أقربائها، فينتظر منهم أن يقوموا في الحال بإرجاع الأبقار نفسها التي دفعت لهم إذا كان ذلك ممكناً. وإذا كانت هذه الأبقار قد دخلت في زيجات أخرى أو تم توزيعها بصورة ما؛ فيجب اقتفاء أثرها وإرجاعها.

أما تسمية الأطفال؛ فالعادة عند «الدينكا» أن يأخذ الأبناء أسماء أجدادهم وأقارب الأب والأم، ولا يُعطى الاسم للمولود إلا بعد أن يبلغ من عمره 6 – 7 أشهر، وقد أخذت هذه القبائل طريقة عملية الختان عن العرب عندما فتحوا السودان، ويتم الختان في عمر يتراوح بين 5 – 7 سنوات للذكور والإناث على السواء.

مراحل التكريس عند الأبناء:

مراحل التكريس هي مراحل تسعى بذكور القبيلة نحو الانفصال والاعتماد على الذات، وتبدأ عملية التكريس الأولى عند الذكور بالختان في عمر 5 – 7 سنوات، ولا يُستثنى سوى المعتوه أو المريض بمرضٍ مزمن، وكل طفل لا يمر بهذه المرحلة ينتقدونه اجتماعياً ويسخرون منه كما لو أنه ارتكب عملاً سيئاً ضد رفاقه.

وتبدأ مرحلة التكريس الثانية عند الأولاد البالغين الناضجين في فئة عمر واحدة بعمل عدة جروح دامية على الجبهة في احتفالات اجتماعية.

وتبدأ مرحلة التكريس الثالثة عندما تزيد قوة الصبيان وتبرز أسنانهم كلها كاملة بحجمها الطبيعي عند الناضج في العمر, فيتم خلع الأسنان الأربعة الأمامية (العليا، والسفلى)، ويعدون ذلك من المظاهر الجمالية.

أما التكريس الرسمي فإنه يتم ما بين سن 16 – 18، وهو من أهم التجارب أو الخبرات التي تعترض الصبي عند «الدينكا» في حياته، فهو لا يخرج من صفوف الصبية أو الأطفال في نظر المجتمع قبل أن يجتازها ويظل يقوم بالأعمال المعتادة مثل حلب الأبقار، والذهاب إلى المراعي، والقيام بأغلب النشاطات المرتبطة بتربية الماشية. أما الذين اجتازوا طقوس التكريس فإنهم لا يقومون بمثل هذه النشاطات إلا في ظروف استثنائية.

وهكذا نرى أن النسق القرابي هو أساس البناء الاجتماعي في مجتمع «الدينكا»؛ فشبكة العلاقات القرابية وما يرتبط بها من علاقات اقتصادية وسياسية وشعائرية تستند إلى البناء القرابي وتدعمه, وهو بدوره يتفاعل مع الأبنية الاجتماعية الأخرى التي تكوّن نسقاً كلياً.

وهذا هو النمط الشائع في العلاقات الاجتماعية بين القبائل الإفريقية، فالزواج بوصفه نسقاً قرابياً من أهم النظريات التي توضّح طبيعة العلاقات وبخاصة في المجتمعات البسيطة.

ـــــــــــــــ انتهـــــــى ـــــــــــــــ

مع التمنيات بالتوفيق

د. عبير سرور